﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ٤٨﴾ [مريم: 48]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

اعتزال المشركين في ذات ربّ العالمين

لـمَّا أمر الأب ابنه الخليل ﷺ بهجره الزّمان الطّويل، أخبره بأنّه يتمثّل أمره ويعتزله وقومه ومعبوداتهم(1).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ﴾: (عزل) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على تَنْحيَةٍ وإمالَةٍ، تَقولُ: عَزَلَ الإنْسانُ الشَّيْءَ يَعْزِلُهُ، إذا نَحَّاهُ في جانِبٍ، وهوَ بمَعْزِلٍ وفي مَعْزِلٍ مِنْ أَصْحابِه، أَيْ في ناحيَةٍ عَنْهُم(2)، والاعْتزالُ: تجنّب الشيء عمالة كانت أو براءة، أو غيرهما، بالبدن كان ذلك أو بالقلب، يقال: عَزَلْتُهُ، واعْتَزَلْتُهُ، وتَعَزَّلْتُهُ فاعْتَزَلَ، قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الكهف: 16](3)، فيكون معنى ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ﴾ في الآية: أتنحّى عنكم وأفارقكم(4).

2) ﴿تَدۡعُونَ﴾: (دعو) أَصْلٌ يَدُلُّ على إمالَةِ الشَّيْءِ إلَيْكَ بِصَوْتٍ وكَلامٍ يَكونُ مِنْكَ، تَقولُ: دَعَوْتُ أَدْعو دُعاءً(5)، والدّعاء هو التّضرّع إلى الله ﷻ في طلب أمر مثل: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ [آل عمران: 38] وهو كثير في القرآن، والدّعاء: العبادة؛ لأنّ العبادة تَقَرّب إلى المعبود، واعتزاء إليه، واستكفاء به، فهي من الجذب والانجذاب،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 12/ 204.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عزل).
(3) الراغب، المفردات: (عزل).
(4) الواحدي، البسيط: 14/ 260.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دعو).

وكثير ما تصحبه عبارة: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[1]، ومعنى (تدعون) في الآية: تعبدون من دون الله يعني: الأصنام[2].

3) ﴿شَقِيًّا﴾: (شقو) أَصْلٌ يَدُلُّ على المُعاناةِ وخِلافِ السُّهولَةِ والسَّعادَةِ، والشِّقْوَةُ: خِلافُ السَّعادَةِ، ورَجُلٌ شَقِيٌّ بَيِّنُ الشَّقاءِ والشِّقْوَةِ والشَّقاوَةِ[3].

وكما أنّ السّعادة في الأصل ضربان: سعادة أخرويّة، وسعادة دنيويّة، كذلك الشّقاوة، فمن الشَّقاوَةُ الأخرويّة قوله ﷻ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه: 123]، ومن الدّنيويّة قوله ﷻ: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴿١١٧﴾﴾ [طه: 117][4]، ومعنى ﴿شَقِيًّا﴾ في الآية: لم أكن خائبًا ضائع السعي مثلكم في دعاء آلهتهم[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

مفارقة إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه والتعريض بشقوتهم

قال الخليل عليه السلام لأبيه وقومه: أفارقكم وآلهتكم الّتي تعبدونها من دون الله، وأدعو ربي مخلصًا، فرجائي في ربّي كبير عسى ألا يمنعني إذا دعوتُه، وألّا أشقى بعبادته، كما شقيتم أنتم بعبادة الأصنام[6].

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ دعاءَ الخليل عليه السلام ربَّه شاملٌ لدعاء العبادة، ودعاء المسألة، وإلى أنَّ وظيفة مَن أيس مِن دعاء قومه - واتبعوا أهواءهم، فلم تنجع فيهم المواعظُ، فأصروا في طغيانهم يعمهون - أن يشتغلَ بإصلاح نفسه، ويرجوَ القبولَ من ربه، ويعتزل الشر وأهله[7].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (دعو).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 208.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شقو).
(4) الراغب، المفردات: (شقو).
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 12.
(6) الجزائري، أيسر التفاسير: 3/ 313، ونخبة منَ العلماء، التّفسير الميسر، ص: 308.
(7) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 495.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ﴾:

جمع إبراهيم عليه السلام بين الاستغفار والاعتزال

عُطف قوله: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ على جملة ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ بالواو الدَّالة على الجمع والاقتران، فجَمَعَ إبراهيمُ عليه السلام بين الاستغفار لأبيه والاعتزال لقومه، فخرج من بلد الكِلْدان - الذين عاشوا في العصور العتيقة من منطقة جنوب بلاد الرَّافدين - عازمًا على الالتحاق بالشام حَسَب أمر الله تعالى[1].

نكتة تلوين الخطاب في الآية:

التفات إبراهيم عليه السلام من خطاب أبيه إلى خطاب جميع قومه

تضمَّن قوله: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تلوين الخطاب من المفرد إلى الجمع فانتقل إبراهيم عليه السلام من خطاب أبيه في قوله: ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ﴾ إلى خطابه جميع قومه بقوله: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ﴾، والنُّكتة في ذلك أنَّ إبراهيم عليه السلام لمَّا رأى أنَّ هجرانه أباه وحده غير مغنٍ؛ لأن بقيّة القوم هم على رأي أبيه فرأى أن يهجرهم جميعًا، ولذلك قال له: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ﴾، وضمير جماعة المخاطبين عائد إلى أبي إبراهيم وقومه؛ تنزيلًا لهم منزلة الحضور في ذلك المجلس، لأنّ أباه واحد منهم وأمرهم سواء، أو كان هذا المقال جرى بمحضر جماعة منهم[2].

إيثار الفعل ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ﴾ في الآية:

المفارقة في المكان والمفارقة في الدين

أوثِر في قوله: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ التعبير بالفعل ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ﴾ خصوصًا لأنّ الاعتزال للشيء هو التّباعد عنه، فاعتزلهم إبراهيم عليه السلام في المكان بأن فارقهم من بلدة كوْثَى - وهي مدينة سومَرية قديمة تقع حاليًا في محافظة بابل في العراق، على الجانب الشَّرقي لنهر الفرات - فهاجر منها إلى الأرض

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 122.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 122.

المقدسة، كما اعتزلهم ﷺ في الدّين والطّريقة أيضًا، فإنهم بعبادة الأصنام سالكون طريقة الهلاك، فوجب عليه مجانبتهم[1].

كما أنّ مجيء الفعل ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ﴾ بصيغة المضارع بعد أن كان الفعل - في الآية السابقة - ﴿سَأَسْتَغْفِرُ﴾ بصيغة الاستقبال، الذي معناه أنَّ الاستغفار سيقع في المستقبل، غير أنّ اعتزاله لأبيه وقومه سيكون الآن؛ وذلك لأنّ المضارع غالب في الحال[2].

دلالة العطف في ﴿وَمَا تَدْعُونَ﴾:

عطف الأصنام على حكم المفارقة والاعتزال

عُطف في قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الاسم الموصول ﴿وَمَا﴾ العائد على الأصنام المدعوّة من دون الله على ضمير القوم؛ للجمع بينهما في حكم الاعتزال والمفارقة، فاعتزلهم ومعبوداتهم من دون الله، كما أنَّ في ذلك أيضًا الإشارة إلى عداوته ﷺ لتلك الأصنام إعلانًا بتغيير المنكر[3].

معنى الاسم الموصول ونكتة التّعبير به:

الإيماء إلى وجه اعتزال القوم وأصنامهم

جاء في قوله: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ التعبير عن الأصنام بطريق الموصولية بقوله: ﴿وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ للإيماء إلى وجه بناء الخبر وعلّة اعتزاله إيَّاهم وأصنامهم: وهو أنّ تلك الأصنام تُعبَد من دون الله، وأنَّ القوم يعبدونها، فذلك وجه اعتزاله إيَّاهم وأصنامهم[4].

سرّ التعبير بفعل الدُّعاء:

الدعاء هو العبادة والعبادة هي الدعاء

أوثِرَ في قوله: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ التعبير بالفعل ﴿تَدْعُونَ﴾، ومعناه تعبدون، والدّعاء العبادة؛ لأنّها تستلزم

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 21/ 547.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 122.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 122.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 122.

دعاء المعبود، فالدّعاء يطلق على سؤال العبد من الله حاجته وهو ظاهر معناه في اللغة، ويطلق على عبادة الله عن طريق الكناية؛ لأنّ العبادة لا تخلو من دعاء المعبود بنداء تعظيمه والتضرّع إليه.

والدُّعاءُ عِبادةٌ من أعظَمِ العباداتِ، وأجَلِّ الطَّاعات، ويجِبُ صَرْفُه لله تعالى وحْدَه لا شَريكَ له، وهذا إطلاق أقلُّ شيوعًا من الأوّل، وقد جاء من كلام النبيّ ﷺ ما فيه معنى الدعاء لما يلائم المعنيين، في حديث النعمان بن بشير قال: سمعت النبي ﷺ يقول: "**الدعاء هو العبادة**"[1] ثم قرأ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: 60]؛ فإنَّ قوله: "**الدعاء هو العبادة**" يقتضي اتحاد الحقيقتين، فإذا كان الدعاء هو العبادة: كانت العبادة هي الدعاء لا محالة[2].

فائدة التقييد بالجارّ والمجرور في الآية:

الإنكار على القوم عبادة آلهةٍ باطلة من دون الإله الحقّ سبحانه

تضمَّن قوله: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ التقييد بالجارّ والمجرور بقوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ وذلك للإشعار بالإنكار عليهم عبادة آلهة باطلة من دون الإله الحقّ سبحانه، و﴿مِن﴾ هنا ابتدائية بمعنى أنهم مبتدئون من جانب غير جانب الله، فهم يعبدون آلهة مبتدئين إياهم من ناحية غير الله؛ لأنّهم حين يعبدونهم قد شُغِلوا بعبادتهم ففرّطوا في عبادة الله المستحقّ للعبادة، وتجاوزوا حقّ إلهيّته في أحوال كثيرة وأوقات وفيرة[3].

معنى الواو في فعل الدعاء:

عطف عبادة الله بعد التبرؤ من عبادة الأصنام

عُطِف قوله: ﴿وَأَدْعُواْ رَبِّي﴾ على الجملة الّتي قبله وهي قوله: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بحرف الواو الدَّال على

(1) أخرجه الترمذي برقم: (2969)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 181.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 186.

الجمع والاقتران، فبعد إعلان إبراهيم ﷺ اعتزال أصنامهم عطف عليه الإعلان بأنّه يدعو الله؛ احتراسًا من أن يحسبوا أنّه نوى مجرد اعتزال عبادة أصنامهم، فربما اقتنعوا بإمساكه عنهم، ولذا بيّن لهم أنه بعكس ذلك يدعو الله الّذي لا يعبدونه[1].

دلالة ﴿عَسَىٰٓ﴾ في الآية:

إظهار التّواضع والطمع في كرم الله ﷻ

ورد في قوله: ﴿وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ التّعبير بلفظ ﴿عَسَىٰٓ﴾، وهي للرّجاء على لسان إبراهيم ﷺ، وجملة ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿وَأَدْعُواْ﴾ والمعنى: (أدعو راجيًا ألّا أكون بدعاء ربّي شقيًّا)، وفي تصدير الكلام بـ﴿عَسَىٰٓ﴾ من إظهار التّواضع ومراعاة حسن الأدب والتّنبيه على أنّ الإثابة والإجابة بطريق التفضّل منه ﷻ لا بطريق الوجوب وأنّ العبرة بالخاتمة، وذلك من الغيوب المختصّة بالعليم الخبير[2].

بلاغة إيقاع الرجاء على الكون المنفي:

رجاء دوام عدم الاتّصاف بصفة الشقاء

جاء في قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ إيقاع الرّجاء على الكون المنفيّ ﴿أَلَّآ أَكُونَ﴾ بمعنى أنّه يرجو دوام عدم اتّصافه بصفة الشقاء؛ وذلك لأنّ (كان) يأتي في الأصل للاتّصاف بالخبر في الماضي مع الانقطاع، غير أنّه يخرج لدلالة الدّوام والاستمرار بمعنى: لم يزل، فتختص كان بمرادفة لم يزل كثيرًا، فتكون دالّة على الدوام[3].

سرّ العدول عن التّصريح برجاء السّعادة إلى نفي الشّقاء:

التّعريض بشقاوة عبدة الأصنام وخيبتهم

عدل النّظم القرآنيّ في قوله: ﴿وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ عن التّصريح برجاء السّعادة إلى نفي الشّقاء،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 122.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 419.
(3) السّيوطيّ، همع الهوامع: 1/ 120.

وفي إعلانه عليه السلام هذا الرّجاء بين ظهرانَيْهم نكتةٌ بلاغيّة، وهي التّعريض بأنّهم أشقياء بدعاء آلهتهم[1].

دلالة تقديم الجارّ والمجرور في الآية:

الكناية عن حصول السّعادة بنفي الشّقاوة

يظهر في قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ تقديم الجارّ والمجرور ﴿بِدُعَآءِ رَبِّى﴾ على الخبر ﴿شَقِيًّا﴾؛ وذلك لنكتة بلاغية، وهي الاهتمام بدعاء الله وحده.

إيثار التعبير بصفة الشقاوة في الآية:

أوثِرَ في قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ التّعبير بلفظ ﴿شَقِيًّا﴾، والشَّقيّ في اللّغة الذي أصابته الشِّقوةُ، وهي ضِدُّ السَّعادَةِ، وهي الحرمان من المأمول وضلال السّعي، فأطلق نفي الشّقاوة والمراد حصول ضدّها وهو السّعادة على طريق الكناية؛ إذ لا واسطة بينهما عُرفًا، ومثل هذا التّركيب جرى في كلامهم مجرى المثل في حصول السّعادة من شيء، فرجاء إبراهيم عليه السلام في هذه الآية هو أن يكون سعيدًا، أي: مستجاب الدّعوة[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الشقاء والنّكَد:

عموم الشقاء في الدّنيا والآخرة، وخصوص النّكد بالدنيا

يشترك لفظا (الشقاء) و(النّكَد) في الدّلالة على المُعاناةِ وخِلافِ السُّهولَةِ[3]، ويختلفان في كون لفظ (الشّقاء) أعمَّ من (النّكد)، فالشّقاء يطلق على ما كان منه في الدّنيا كما في قوله تعالى: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ [مريم: 32]، وعلى ما كان منه في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾﴾ [الليل: 15] في حين أنّ لفظ (النّكد) لا يطلق إلّا في ضيق الدّنيا وصعوبة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 123.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 65.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شقو).

العيش، يقال في اللغة نَكِدَ عيشُهم بالكسر يَنْكَدُ نَكَدًا: اشتدَّ، ونَكِدَتِ الرَكيَّةُ: قلَّ ماؤها، ورجلٌ نَكِدٌ، أي عَسِرٌ[1].

كما يختلفان باختلاف أضدادهما، فضدُّ الشقاء السّعادة، وضدّ النكد السهولة والسّعة.

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (نكد).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والثلاثون،
سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والثلاثون، سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 31 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-73-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 31 : المجلد الحادي والثلاثون، سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-73-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9736546 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»